



مازن معروف: تعزل ليسينغ، بشكل حاد، الحالة الاجتماعية وتؤسس في ناكرتنا خيوط المتوقع أو ما سوف يأتي لاحقاً، تجعل فينا مساحة من اللاوعي المحتلة بالكامل من قبل تفاصيل العمل.

أنيسة مخالدي: الجدل الذي تثيره كتابات دوريس ليسينغ تغذيه ملامح شخصيتها الحرة، المستقلة والمتمردة كثيراً، في معالجتها لقضايا المرأة، وهو ما ظهر جلياً في روايتها "مذكرات من ذهب".

بيار أبو صعب: ليسينغ وريثة العالم القديم الذي ما انفكت تشهد على انهياره، كل كلمة كتبتها هي سهم مسدد إلى المجتمع التقليدي الذي تنحدر منه.



رحيل دوريس ليسينغ حاملة نوبل للآداب تاركة وراءها ثروة أدبية من 60 كتاباً

كاتبة ملاحم التجربة الأنثوية في الغرب بعيداً عن شكوى النساء من ظلم الرجال



ظلت ليسينغ تتأمل الكون ببصيرة شبه صوفية

لساقه وصحته، وتشربت في سنواتها الأولى ذكريات أبيها المريرة عن الحرب كمن تنتشرپ سُمّاً. لقد شكلتها الحرب. شوهتها تشويها، والظاهر أننا ننسى. تخيل ليسينغ في الجزء الأول من الكتاب حياة سعيدة لوالديها لو لم تندلع الحرب، ويتبع ذلك الجزء تأمل ناقب لعلاقتهما الحقيقية في أعقاب الحرب وانتقالهما إلى أفريقيا.

لقد أخذت ليسينغ بأسباب حياة مهنية أشبه بالرحلة الحافلة بالمفاجآت طيلة الطريق، اخترت عملية لا تنقطع للتخلص من الأوهام والأفكار المسبقة، لم تلجأ إلى الصراخ النسوي الخليلي بكتابات نظيراتها، ولم تتبن قط موقف الضعيف، وإنما رسمت صوراً لنساء يتخذن القرارات في هدوء ويحتملن نتائجها بلا اكترات، فجدست الغاية من الحركة النسوية بدون الحركة ذاتها بكل ما عاها من نقائص وشطحات في منتصف القرن العشرين.

مؤلفات ليسينغ

الإصدارات الروائية

"العشب يغني" عام 1950، "خمس: روايات قصيرة" عام 1953، "زواج ملائم" عام 1954، "مارثا كويست" عام 1952، "موجة من العاصفة" عام 1958، "محاط بالأرض" عام 1965 و"مدينة بأربع بوابات" عام 1969.

المجاميع القصصية

"كان هذا بلد الزعيم العجوز" عام 1951، "عادة الحب" عام 1957، "رجل وامرأتان" عام 1963، "قصص أفريقية" عام 1964، "شتاء في يوليو" عام 1966، "القطط بالأخص" عام 1967، "قصة رجل لا يتزوج" عام 1972، "لندن تحت الملاحظة" عام 1992، "جواسيس عرفتهم" عام 1995.

روايات الخيال العلمي

"اجتماع للهبوط إلى الجحيم" (1971) و"مذكرات ناجية" (1974) و"سلسلة سهيل في أرجوس: سجلات" (1979-1983)، "الضيف الذي سبق الظلام" (1973)، "مذكرات ناجية من الموت" عام 1974، "رد: كوكب مستعمر 5، شيكاستا" عام 1979، "زواج المناطق ثلاثة وأربعة وخمسة" عام 1980، "التجارب السيريامية" عام 1980، "تعيين ممثل للكوكب 8" عام 1982، "العملاء العاطفيون في إمبراطورية فوليان" عام 1983، "مذكرات جارة طيبة" عام 1983 تحت اسم مستعار هو جين سامرز، "إن استطاع الكبار" عام 1984 تحت اسم الطبيب" عام 1985 رواية "الطفل الخامس" عام رواية "لعب اللعبة" عام 1995، "الحب، مرة أخرى" عام 1996، "رواية مارا ودان: مغامرة في يناير" من عام 1999، "رواية بن، في العالم" عام 2000، "رواية" أحلى حلم" عام 2001، "قصة الجنرال دان وابنة مارا، جيريو وكلب الثلج" عام 200، "الشق" عام 2007 روايتها الأخيرة "الفريد وإيميلي" عام 2008.

في مواجهة أسلحة دمار متطورة وما يزيد على 100000 جندي روسي، وأصل مقاتلو المقاومة الأفغانية - المجاهدون - كفاحهم في سبيل الحرية. انخرطت ليسينغ عبر السنوات مع المقاومة الأفغانية من خلال منظمة الإغاثة الأفغانية، وفي سبتمبر/أيلول 1986 طارت إلى مدينة بيشاور في باكستان، وهناك رأت ما وصفته بأنه "حال مأساوي" يعيشه الشعب الأفغاني.

حالة لاتناسبني

لم تؤمن ليسينغ يوماً بمؤسسة الزواج، إنها حالة لا تناسبني. انتقدت عصر أمها من الانقراض، هناك جيل كامل من النساء تراءت حيواتهن وكأنها توقفت حين رزقن أطفالاً. أصبح أغلبهن عصابات - بسبب، على ما أظن، التناقض بين ما تعلمن بالمدارس أن في مقدورهن عمله وما جرى لهن في الواقع. هاجم النقاد ليسينغ بأنها غير أنثوية في تصوير الغضب والعدوان الأنثوي بروايتها "المفكرة الذهبية" (1962). ولأنها كانت تتسم دوماً بشجاعة الرد، أفحمتهم قائلة، "البادي أن ما تفكر فيه العديد من النساء ويشعرن به ويكادينه بث عظيم الدهشة في نفوس الكثيرين". كما استنكر أحد النقاد أن أنا ولف، بطلة الرواية، تحاول أن تعيش بحرية رجل. نقطة أكتها ليسينغ، فقد اعتقدت أن تلك المواقف في كتابات الرجل مُسلّم بها، مقبولة كأسس فلسفية سليمة، طبيعية تماماً، وليست بالقطع مواقف كارهة للمرأة أو عدوانية أو عصابية. وفي الوقت ذاته لم تسلّم ليسينغ من نقد الأكاديميين من دعاة المساواة. الحق أنها لم تكون نسوية كما كانت الكلمة تعني وقتذاك. لا ريب أن "المفكرة الذهبية" كانت بمثابة إنجيلاً نسوياً رائداً غير أن ليسينغ رفضت مبدأ المساواة بين الجنسين مؤكدة أنها ليست من مؤيدي هذه المساواة، ولم تكن من مؤيديها في يوم من الأيام. وقد عبرت عدة مرات عن عدم قبولها للحركات النسوية، تلك النساء اللاتي أصبحن مريضات مع رجالهن". وفي مناسبات عدة ناقشت ما يعانينه الرجل في أوروبا من تهميش النساء له!

قلت كل شيء

طفتت ليسينغ في العقد الثامن من القرن العشرين تتأمل الكون ببصيرة شبه صوفية، وعكست روايات الخيال العلمي "اجتماع للهبوط إلى الجحيم" (1971) و"مذكرات ناجية" (1974) و"سلسلة سهيل في أرجوس: سجلات" (1979-1983) ارتبطت ليسينغ الروحي بالمفكر الصوفي الأفغاني الأصل إريش شاه الذي تشدد كتاباته في التصوف على تطور الضمير والإيمان بأن التحرر الفردي لن يتحقق إلا بعد أن يفهم الناس العلاقة بين أقدارهم وقدر المجتمع. نغته ليسينغ بعد وفاته قائلة: "بدأ كتابه 'الصوفيون' أكثر الكتب التي قرأتها في حياتي إلهاشاً، وكأنني كنت في انتظار قراءة ذلك الكتاب طيلة حياتي. من المبتذل أن أقول إن كتاباً غير حياة فرد غير أن ذلك الكتاب غير حياتي".

انتهت علاقة ليسينغ بالكتابة بعد رواية "الفريد وإيميلي" (2008)، لم يبق شيء لم أقله. تسير في الرواية حياة والديها التي حطمتها الحرب العالمية الأولى، إذ انتهت بفقدان أبيها

ولكن حقيقة الحركة الشيوعية كشفت لعينيتها إبان سحق انتفاضة المجر وبعد الحرب العالمية الثانية فنبذتها تماماً عام 1954. وحين صارت عضواً في اللجنة الإدارية لجمعية الكتاب في لندن، قالت مازحة إنهم "توقعوا مني الخداع والتناقض اللذين يميزان الشيوعيين".

ومع هذا التحرر من الوهم يسرد كتابها "عصف الرياح بكلماتنا" (1987) مسيرة المقاومة الأفغانية إبان الاحتلال السوفيتي،

أمدته مارجریت بهما. أبقت النيران موجهة وملاّت الصفائح بالسوائل، ثم حلت الرابطة بعد الظهر والجراد يتدفق فوق الرؤوس منذ ساعتين.

جلست مارجریت وآيات القنوط تحل عليها، ثم دار ببالها، طيب، لو أنها النهاية جفاً، فلا حيلة لنا. ما العمل الآن؟ سوف نرغم نحن الثلاثة على الرجوع إلى البلدة. لكنها سدوت في هذه اللحظة لمحة خاطفة إلى ستيفن، عجوز فلح الأرض أربعين عاماً في هذا البلد وعرف الإفلاس مرتين من قبل، ففطنت أن شيئاً لن يحمله على الذهاب ليشغل بائعاً في المدينة. توجع قلبها له؛ كلكه إنهاك أي إنهاك وبانت تجاعيد القلق عميقة من أنفه حتى فمه. العجوز المسكين. رفع جرادة دخلت بصورة ما في جيبه ليمسكها في الهواء من رجل واحدة. "لديك قوة زنبك من الصلب في هاتين الرجلين"، خاطب الجرادة بلهجة تنم عن الود. ثم، ورغم أنه ظل خلال ثلاث الساعات الماضية يكافح الجراد ويسحق الجراد ويصرخ في الجراد ويجرفه في أكوام هائلة لتحرقه النيران، صحب مع ذلك هذه الواحدة إلى الباب وقذفها خارجاً بيد حذرة لتتضم إلى رفيقاتها وكانما يُفضل ألا يمس شعرة من رأسها. بث المنظر قدراً من العزاء في نفس مارجریت؛ وإذا بها يتولاهما شعور بانتهاج عار من المنطق. فقد استحضرت أنها ليست أول مرة يعلن فيها الرجلان خلال ثلاث السنوات السابقة أنهما هلكا هلاكاً نهائياً بلا سبيل إلى الإصلاح.

جعلت مارجریت تبكي. يئست من الوضع كله كل اليأس. إن لم يكن موسماً سيئاً، كان الجراد؛ إن لم يكن الجراد، كانت ديدان الجيش أو نيران المروج. هناك دوماً شيء. تراءى حفيف جيوش الجراد كغابة كبيرة في خضم عاصفة. غاب سطح الأرض تحت تيار بني صقيل يحيش؛ وكأنه غارق في الجراد، يغمره طوفان بني تعافه النفس. بدأ وكان السقف قد يغور تحت ثقله، وكان الباب قد يستسلم تحت ضغطه لتعج به هذه الحشرات - وكان الظلام الدامس يرخي سدوله. أطلت من النافذة ليرتقي طرفها إلى السماء. قلت كثافة الهواء؛ ظهرت فجوات زرقاء في السحب الداكنة المتحركة. برزت المسافات الزرقاء وتضاعت؛ لا بد وأن الشمس تغرب. تبينت عبر ضباب الحشرات أشكالا تدنو. أولاً ستيفن العجوز وهو يسير قدماً بخطى شجاعة ثم زوجها وقد عراه الهزال والإنهاك من فرط التعب، وخلفهما جاء الخدم. اكتسوا جميعاً بالحشرات. كف صوت الأجراس. ما تراءى إلى أذني مارجریت إلا الحفيف المتواصل لعدد لا عد له ولا حصر من الأجنحة.

لطالما استحضرتُ كلمات الكاتبة البريطانية فيرجينيا ولف في كتابها "الأمواج" (1931)، وهي تعلن "الانهيار مصيري. سوف يهزأ بي الهانئون طيلة حياتي. سوف أكون رمية تطرحها الأيدي يمينا ويساراً بين هؤلاء الرجال والنساء، بوجوههم المرتجة، بالسنتهم الكاذبة، كقطعة من الفلين في بحر هائج، كشریطة من العشب أرتمي بعيداً كلما انفتح الباب". هكذا تبدأ حيوات ترسمها الروائية البريطانية دوريس ليسينغ (1919-2013)، ولكنها تنتهي كحياة ليسينغ ذاتها، حياة انقضت بوفاتها ظهر أمس: حافلة غير هيابة، تشاكس الجميع، رفقاء وسلطة، بل وحكومات، نسوية وغير نسوية في آن واحد، ومن المعجز كيف يسع هذه الشخصيات أن تتلون وتتكيف لتبزغ من أسفل التراب وتسير على قدمين ثابتتين.

هالة صلاح الدين

لندن - حين نالت ليسينغ جائزة نوبل عام 2007 وصفتها لجنة التحكيم السويدية بأنها "كاتبة أخضعت بشكوكها وحسبها المتقد وقدرتها على الابتكار حضارة منقسمة للفحص والتصحيح". لم تترك ليسينغ نوعاً أدبياً إلا وطرقته لتخلف لنا ستين كتاباً في القصة القصيرة والرواية القصيرة والرواية والشعر والنقد والمسرح بل والأوبرا. اعتمدت كتبها غير القصصية على التزامها الجاد بالشؤون السياسية والاجتماعية معبرة عن الصدام بين الثقافات والظلم الفادح الناجم عن التفرقة العرقية والصراع بين عناصر متضاربة داخل شخصية الفرد والانقسام بين ضمير الفرد ومصلة الجماعة.

تشجّب قصصها القصيرة ورواياتها الدائرة في أفريقيا - المنشورة في العقد السادس من القرن العشرين - طرد المستعمرين البيض للسود من أراضيهم والاستيلاء على ممتلكاتهم، كما تفضح عمق ثقافة البيض في أفريقيا. كانت روديسيا الجنوبية وجنوب أفريقيا قد منعنا ليسينغ عام 1956 من دخول أراضيها لمدة خمسة وعشرين عاماً بسبب موقفها الرافض للسياسات العنصرية ومعارضتها لحكومة أقلية بيضاء. المفارقة أن جنوب أفريقيا رحبت بها حين زارتها عام 1995 باعتبارها كاتبة تناصر قضايا نبذتها

مقاطع من قصة «هجوم معتدل للجراد»

انتقلت أسرة ليسينغ عام 1924 إلى المستعمرة البريطانية روديسيا الجنوبية وقتذاك، طلباً للثراء عن طريق زراعة الذرة. اشترت الأسرة مزرعة مكونة من 15000 أكر إلا أنها لم تدر أرباحاً على عكس التوقعات، ومن هذه التجربة استوحيت قصتها "هجوم معتدل للجراد" (1955).

كان الجراد يقع عندئذ كالبرد على سطح المطبخ. بدأ للآذان وكان عاصفة هوجاء تهب، اطلت مارجریت خارجاً فابصرت الهواء مظلماً بشبكة من الحشرات، جزت على أسنانها وجرت خارجة إليها؛ لا يعجزها أن تفعل ما يفعله الرجال. كثف الهواء فوق رأسها - الجراد في كل مكان. ارتطم الجراد بها فزاحته عنها - مخلوقات ثقيلة بنية تشوبها حمرة، ترمقها بعيون كالخرز مثلاً مثل عيون الرجال العجّز فيما تلتصق بها بأرجل مشرشرة صلبة. حبست أنفاسها اشمئزاً ومرقت من الباب راجعة إلى المنزل. بل إن إحساسها هناك كان أقرب إلى إحساس من يتعرض لعاصفة هوجاء، إذ ارتج السقف الحديدي بفعل الصخب، وأتت من الأرض جلبة الحديد المرقوع كما الرعد. عندما مدت ناظرها إليها

... ثم ركضوا ثانية مبتعدين، والرجالان معهم، وخلال عدة دقائق أصبحت مارجریت دخان النيران يتصاعد من كل أرجاء المزارع. حين أتت تحذيرات الحكومة، تجهز ركاباً من الخشب والعشب في كل حقل محروث. برغت الذرة للنو في سبع رقع من تربة جرداء محروثة لتتبدى طبقة رقيقة من اللون الأخضر الزاهي فوق الأحمر الغامق الصارخ، وحول كل رقعة علت الأن ببطء سحب سميكة من الدخان. رمى الرجال أوراق شجر مبتلة في النيران ليجعلوا الدخان لاذعاً أسود. كانت مارجریت ترصد التلال. تقدمت هناك الآن سحابة طويلة منخفضة بلون لا يزال بالصدأ أشبه، تتضخم إلى الإمام ومن الجانبين وهي تتشاهدما. كان الهانف برن: - إنهم الجيران يقولون أسرعوا، أسرعوا، ها قد أتى الجراد! لقد التهم بالفعل محصول العجوز سميت عن آخره. أسرعوا، أشعلوا نيرانكم!

لا شك أنه بينما تمنى كل مزارع أن يغفل الجراد عن مزرعته ويتابع مسيرته إلى التالية، كان من الإنصاف من ذلك أن يُحذر الآخرين؛ لا بد للمراء أن ينافس بزاهة، تعالى الدخان في كل مكان من عدد لا يحصره من النيران على امتداد خمسين ميلاً فوق الريف. ردت مارجریت على المكالمات، ووقفت بين الكلمة والأخرى لتراقب الجراد. اظلم الهواء ظلمة غريبة لأن الشمس كانت تنوهج باشعتها، كانت أشبه بظلمة نيران المروج حين يزخر الهواء بالدخان ويهبط ضوء الشمس مشوها بلون برتقالي قاتم ساخن. كما قبضت على الصدور بثقل العاصفة. أقبل الجراد سريعاً. عمقت الآن نصف السماء، وخلف الحجب الضاربة إلى الحمرة في المقدمة - طليعة السرب - ظهر السرب الأساسي في سحب ملتزة سوداء تكاد تمتد إلى الشمس نفسها.

